

مرجعية قراءة النصوص الشرعية

عند محمد أركون

أ. نصري سليم

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - قسنطينة

من اللافت في أيامنا هذه كثرة المؤثرات الفكرية، التي أخذت شكل مناهج دعوية أو مشاريع فكرية، وقد عد مشروع المفكر الجزائري محمد أركون بمنهجه التفكيكي التاريخي أحد أبرز هذه المشاريع، كما أن صاحبه هو الأكثر حضوراً في الساحة الفكرية العربية بمشروعه النقدي "الإسلاميات التطبيقية" الذي يطال الإسلام كافة بما في ذلك نصوص الوحي الإلهي القرآن الكريم والحديث النبوي، ويتوسل فيه بمختلف منجزات العقل الغربي من منهجيات العلوم الإنسانية وعلوم اللسانيات الحديثة.

Contemporary there are plenty of intellectual influences featured as missionary methods or intellectual projects. The project of the thinker Mohamed Arkon based on deconstructive historical method was as remarkably influencive as its founder in the Arab thought field, specially his critical project "applied Islamology " wish studies Islam and Islamic sacred texts Quran and the Prophetic sayings using different western methods founded by western minds in Human Sciences and Modern Linguistics.

مقدمة:

لعل أهم ما يميز العصر الراهن كثرة التيارات الفكرية والمناهج الدعوية، نظراً لما يشهده العالم الإسلامي من تحولات كبيرة استجذبت عليه، وقد جاءت هذه التيارات على شكل مشاريع نقدية فكرية لما تتسم به من دعوى إلى التجديد والتحديث في جميع مجالات الحياة، وخصوصاً في أكثر المجالات حساسية عند المسلمين نصوص الوحي الإلهي من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهي وإن كانت لا تعطي صورة واحدة من حيث الحكم عليها، إلا أنها تطرح قراءات جديدة مغايرة لما عليه المنهج الإسلامي، وفي سياقات تاريخية وثقافية وفلسفية غريبة لم تألفها الساحة الفكرية الإسلامية، وتستمد آليات تفكيرها من خارج التداول الإسلامي.

ولما كانت الغاية هي معرفة مدى النقد الذي مارسته هذه الدعاوى الفكرية على التراث الإسلامي عموماً ونصوص الوحي الإلهي خصوصاً، وفق قواعد وشروط محددة، وفي ظل هذه المشاريع التي أصبحت كظاهرة تؤكد قوة حضورها في الثقافة العربية والإسلامية، والتي لا بد من تسجيلها هنا من خلال ما أحدثته من تغيير على مختلف المستويات وخاصة الجانب الفكري، التي كان لها انعكاس مباشر على قراءة النصوص الشرعية، والتحرر من الشعور التقديسي لها. ولعل أهم ما يميز هذه الظاهرة أيضاً أنها تستبعد أي جانب غيبي وعقائدي، أي نزع التعالي عن النصوص الدينية الشرعية وإخضاعها لسنن القراءة شأنها في ذلك شأن بقية النصوص، وقد بات لزاماً علينا في مجال الدراسات الإسلامية الوقوف على مثل هذه المشاريع الفكرية والنظر فيها لتحديد موقع النص الشرعي في مناهجها وتطبيقاتها عليه من جهة، وفي مدى صحة تلك الأدوات النقدية المثيرة من جهة أخرى.

فجاءت هذه المشاريع على شكل مقاربات فكرية بين الإسلام والحداثة، يلحظ الباحث من الوهلة الأولى مدى تباينها واختلافها، فمنها التي تدعي أن للإسلام حدائثه الخاصة به، والتي قد تتفق مع بعض الجوانب في الحداثة الغربية، ومنها من رأت أن الإسلام متعالٍ على الحداثة، فهو متجاوز

للحدثاء ولما بعد الحدثاء، ولا يتعارض مع نزعة التحديث والتطور العلمي والتكنولوجي، فهو مع تحديث المجتمعات الإسلامية مع المحافظة على خصوصياتها الدينية والتقليدية، فهذه المقاربة تفرق بين الحدثاء العقلية والحدثاء العلمية التقنية. ومنها من فرقت بين الإسلام والحدثاء باعتبار أن الحدثاء هي ذلك النمط الحياتي الذي وصلت إليه المجتمعات الغربية، وبالتالي فإن كل محاولة لتحديث الإسلام إنما هي محاولات إلى تحقيق النماذج المدنية الغربية لا غير. ولكن النموذج الأبرز في كل هذه المقاربات هو ذلك النموذج الذي يدعو إلى إحداث قطيعة معرفية مع التراث الإسلامي وتحقيق التجاوز له من خلال الوقوف عليه وتفكيكه وتحليله ومن ثمَّ تجاوزه، وفي هذا السياق - سياق التجاوز - يندرج مشروع محمد أركون الفكري في دراسته للتراث الإسلامي. وقد سعى هذا النمط من المشاريع الفكرية إلى ضرورة القيام بزحزحة القنوات الإسلامية، وكسر الثبات في الوعي الإسلامي جماعات وأفراد، فيما يتعلق بالنصوص التأسيسية الأولى للإسلام القرآن العظيم والحديث النبوي باعتبارهما المحور الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية، وذلك بتبني النموذج الغربي الحديث في قراءة النصوص الدينية باعتباره النموذج السائد في العصر كله والذي يفرض نفسه كضرورة تاريخية لحضارة الإنسان المعاصر، وباتخاذ العقل الغربي كمرجعية نهائية في تكوين تصوراتنا العلمية والعملية بنصوص الوحي الإلهي.

هذه الزحزحة في المسلمات ستمكن حسب ما يعتقد "محمد أركون" بتوجيه عملية القراءة ونقلها من دائرة الممنوع التفكير فيه والمستحيل التفكير فيه إلى دائرة المفكر فيه، وبالتالي الكشف على المسكوت عنه في نصوص الوحي وما يخفيه المخيال الإسلامي من حقائق تستدعي القيام بعملية نقدية معاصرة لكل الإسلام، حتى وإن وصل الأمر إلى إثارة مسلمات يقينية أو مساءلات لنصوص الوحي تؤدي إلى التشكيك فيها أو القطيعة المعرفية معها، أو الالتفاف عليها وتفريغها من محتواها الإيماني والشرعي باسم المنهجيات الحديثة في القراءة.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

وهذا النوع الأخير من المقاربات هو الذي اعتمده المفكر "محمد أركون" في دراسته للفكر الإسلامي، وبناءً على ذلك سيتم تحديد منهجية القراءة المعتمدة للنص الشرعي - القرآن الكريم والحديث النبوي - والوقوف على مصادر هذه القراءات التي يعتمدها "محمد أركون" من خلال السياقات التاريخية والحضارية التي تشكلت فيها، وعليه تتحدد الإشكالية في السؤال التالي: ما هي المرجعية التي تحكم هذه المناهج التي يوظفها "محمد أركون" في قراءة النصوص الشرعية، وذلك من خلال الكشف عن العلاقة التي تحكم هذه القراءات بمختلف سياقاتها المعرفية التي نشأت فيها، وكذا المرجعيات الفلسفية والمنطلقات الفكرية التي تصدر منها.

محمد أركون المفكر والفيلسوف:

ولد محمد أركون في قرية تاوريرت ميمون في منطقة القبائل الكبرى بالجزائر عام 1928م، وفي هذه القرية قضى طفولته ومراهقته، وبدأ يتعلم الفرنسية وعمره سبع سنوات في المدرسة الابتدائية. انتقل بعد ذلك إلى مكان عمل والده بوهراي أين أكمل دراسته الثانوية، ثم التحق بجامعة الجزائر حيث تحصل سنة 1952م على شهادة الليسانس في اللغة والأدب، كما تحصل على دبلوم الدراسات العليا حول "الجانب الإصلاحي في أعمال طه حسين"، وكان ذلك أول اتصال له بالفكر العربي الحديث، كما اشتغل في تلك الفترة بالتدريس في ثانوية الحراش التي كانت تعرف باسم "ميزون كاريه" maison " carrée .

ويمكن اعتبار هذه الفترة من حياة أركون أولى مراحل التأثر بالفكر الغربي الذي سيكون له دور حاسم في تكوينه الشخصي والعلمي. يقول تلميذ محمد أركون ومترجم أعماله "هاشم صالح" متحدثاً عن نشأة أركون الفكرية: «محمد أركون ولد في عام 1928م أي في ظل النظام الكولونيالي، وقد تابع دراسته الثانوية والجامعية في جامعة الجزائر أوائل الخمسينات . وكان البرنامج

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

التعليمي المطبق هو نفسه النظام الفرنسي المطبق في باريس ذاتها. وبالتالي فهو نفسه قد نشأ ضمن إطار الفكر الغربي»⁽¹⁾.

ولعل هذه النشأة - كما يصف هاشم صالح - قد ألفت بظلالها على نشاطه الفكري وإنتاجه العلمي في مراحل متقدمة من حياته. ثم تابع دراسته العليا في باريس حيث حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون سنة 1969م عن دراسة الأنسنة في الفكر الإسلامي بعنوان " L'humanisme arabe au IX^{ème} Siècle " وترجمها هاشم صالح إلى اللغة العربية بـ " نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي ".

انتسب إلى الجامعة الفرنسية كأستاذ محاضر لمادة تاريخ الفكر الإسلامي في جامعة السوربون الجديدة، باريس الثالثة، كما شغل أستاذ كرسي بنفس الجامعة، ومديراً لمعهد الدراسات العربية الإسلامية، كما عمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات العربية والأوروبية والأمريكية، وترأس إدارة مجلة "أرابيكا" وهي مجلة دراسات عربية .

وجميع أعماله ومؤلفاته يكتبها باللغة الفرنسية ويتم ترجمتها إلى العربية بواسطة تلميذه "هاشم صالح" معرّبه وشارحه والذي يشاطر أركون نفس الفكر والتوجه.⁽²⁾

(1) - محمد أركون: العلمنة والدين الإسلام، المسيحية، الغرب، ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط3، 1996م، ص127. (الهامش).

(2) - ينظر ترجمته: الإسلام والحدائق ندوة مواقف، دار الساقى، لندن، ط1، 1990م، ص 418. محمد أركون: نافذة على الإسلام، ترجمة صياح الجهم، دار عطية للنشر، بيروت، ط1، 1996م (الغلاف الأخير للكتاب). خليل أحمد خليل: موسوعة أعلام العرب المبدعين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العربية الأولى، 2002م، 86/1-87. رون هالبير: العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار الجهود الفلسفية لمحمد أركون، ترجمة جمال شحيد، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2001، ص167. علي حرب: نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2005م، ص61. كحل مصطفى: الأنسنة

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

توفي محمد أركون بالعاصمة الفرنسية باريس يوم الثلاثاء 14 سبتمبر 2010.⁽¹⁾

مؤلفات محمد أركون:

تمدنا الدراسات الحديثة في مجال قراءة التراث بجملته وافرة من المشاريع الفكرية ارتبط ظهورها بحركة التجديد في الفكر الإسلامي الحديث منذ مطلع القرن العشرين، وهو ما يتضح بجلاء من خلال تصفحنا لعناوين ومحتويات مئات البحوث والكتب النقدية، التي أولى فيها أصحابها اهتماماً بالغاً لقضايا الإسلام عبر مسار تاريخه الطويل سواء من حيث مضمونه عقيدة وشرعية أو من حيث تطبيقاته المختلفة، بين رافض لهذه القراءات الدخيلة على منهج التفكير الإسلامي، وآخر متحمس لها ثائر على أشكال التقليد إلى الحد الذي أفضى فيه إلى حدوث خصومات نقدية عنيفة، وكان من نتائجها ظهور عدد هائل من هذه القراءات على شكل دراسات نقدية عالجت قضايا التراث، ولم تكتفي بذلك بل تعدت إلى النصوص التأسيسية الأولى القرآن الكريم والحديث النبوي، أثار بعضها جدلاً كبيراً، منها على وجه الخصوص كتابات محمد أركون والتي صدر له العديد منها:

- الأنسنة العربية في القرن الرابع الهجري، وهي رسالة الدكتوراه التي تقدم ذكرها.

- الفكر العربي، ترجمة عادل العوّا، وهو من أعماله الأولى ويمتاز هذا الكتاب عن سائر كتب أركون أن مؤلفه كتب مقدمته مباشرة باللغة العربية. صدر عن منشورات عويدات، 1982م، وفيه يحاول "محمد أركون" تقديم إجابات لإشكالية تغلب الخطاب الإسلامي التقليدي على سائر أنواع الخطاب الاجتماعي، وطرح مشاكل هي في نظر أركون « مشاكل بسيطة جداً » كالتكوين

والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1432هـ/2001م، ص 23-27.

(1) - http://www.fondation-arkoun.org/biographie_pr_mohamed_arkoun.html

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

التاريخي للشريعة الإسلامية أو الجانب الميثي ومكانة الخطاب القرآني، وتاريخ جمع المصحف ومفهوم الوحي والعناصر الميثولوجية والإيديولوجية في السيرة النبوية.⁽¹⁾

- الإسلام، الأمس والغد، وهو عمل مشترك مع المستشرق "لويس غاريديه" 1983م، وفيه مقاربات مثيرة للرد على ما ذهب إليه المستشرق "جاك بيرك" في كتابه المشابه بعنوان "العرب أمس واليوم".⁽²⁾

- تاريخية الفكر العربي الإسلامي وهو نفسه (نقد العقل الإسلامي) ترجمة هاشم صالح، ط1، 1986م، صدر عن مركز الإنماء القومي بيروت، يقوم فيه أركون بنقد العقل الإسلامي في أصوله ومنتجاته، أي بإعادة قراءة الفكر الإسلامي من جديد قراءة يعتمد فيها أركون على التاريخية من خلال مساءلة المخيال الإسلامي وإثارة كل المسائل المسكوت عنها.⁽³⁾

- الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، 1987م، صدر عن مركز الإنماء القومي بيروت، وفيه يتعرض أركون لما يسميه "الأرثوذكسية الإسلامية"، أي الإسلام الرسمي السني دون غيره، ولا يقبل غيره كممثل وحيد للإسلام، وقد وضع هاشم صالح مترجم أركون مقدمة لمحتوى هذا الكتاب الذي يقوم على المنهجية التفكيكية التي يدعو إليها أركون وتطبيقها على المناخ السائد في القرون التأسيسية الأولى، أي تقديم قراءة تفكيكية يستطيع أركون من خلالها

(1) - ينظر محمد أركون الفكر العربي: ترجمة عادل العوا منشورات عويدات، بيروت،

باريس، ط3، 1985، ص 13.

(2) - خليل أحمد خليل: موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العربية الأولى، 2002م، 88/1.

(3) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1996م، مقدمة الكتاب، ص 11-15.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

إحداث زحزحات عديدة داخل ساحة الفكر الإسلامي فيما يتعلق بنصوص الوحي.⁽¹⁾

- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، 1990م، صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر وفيه يتحدث أركون عن السياج الدوغمائي المغلق الموصوف بالدائرة الإيديولوجية التي افتتحها القرآن وعمل النبي ثم وسعت وضخمت فيما بعد من قبل العلماء والفقهاء، ويشير فيه أركون أيضاً إلى علاقة الغرب بالإسلام، ومشكلة الإسلام والعلمنة.⁽²⁾

- الإسلام أوروبا الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، ترجمة هاشم صالح، 1995م، صدر عن دار الساقي بيروت، هذا الكتاب عبارة عن حوار فكري أجراه محمد أركون مع " فريتز بولكستين " زعيم الحزب الليبرالي الهولندي سنة 1993 بطلب من هذا الأخير فتوسعت المقابلة بينهما، وهو عبارة عن مقارنة بين الإسلام والديمقراطية، فتضمن الكتاب مسائل: العلمنة والحداثة والديمقراطية، وعن مختلف علاقة الإسلام بالغرب.⁽³⁾

- من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، 1991م، صدر عن دار الساقي بيروت، يحاول أركون في هذا الكتاب أن يحدد مفهوم الاجتهاد في الفكر الإسلامي الكلاسيكي، وكيفية الانتقال منه -وضرورة هذا الانتقال - إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي، أي المبادئ المثالية من تفسير وحديث وعلم الكلام إذ يخضعها أركون للبحث التاريخي ولآخر مكتسبات علوم الإنسان والمجتمع.⁽⁴⁾

(1) - محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 2، 1996م، ص 1-13.

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993م، ص 10.

(3) - ينظر محمد أركون: الإسلام أوروبا الغرب، رهانات المعنى وإيرادات الهيمنة، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي بيروت، ط 2، 2001، ص 5.

(4) - ينظر مقدمة الكتاب: ص 5، والغلاف الأخير للكتاب.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

- العلمنة والدين، الإسلام المسيحية الغرب، ترجمة هاشم صالح، 1990م، صدر عن دار الساقى بيروت، وهذا الكتاب هو في الأصل عبارة عن محاضرة ألقاها أركون في مركز "توماس مور" في عام 1985م، تحدث فيها أركون عن الإسلام والعلمنة وبشكل أوسع أي العلمنة والدين، أي دين كان، ولكنه يركز تحليله على الإسلام والمسيحية والغرب المعلمن وهو دراسة تكميلية لكتاب " تاريخية الفكر العربي الإسلامي".⁽¹⁾

- قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، 1998م، صدر عن دار الطليعة بيروت، يقول أركون في هذا الكتاب: يمكن اعتبار هذا الكتاب بمثابة المقدمة الاستيمولوجية لمشروع محمد أركون الفكري، ففيه يتحدث عن الصعوبات المعرفية التي تحول بينه وبين التواصل مع الجمهور الإسلامي العريض ويرجع هذه الصعوبات إلى عقبات استيمولوجية راسخة في العقول وبالتالي فلا بد من زحزحتها، وفيه أيضا ينتقد أركون منهجية الاستشراق الكلاسيكي من خلال أحد رموزه الكبرى: المؤرخ "كلود كاهين" ويدعو إلى تفكيك الخطاب التقليدي والخطاب الاستشراقي عن التراث الإسلامي في آن معاً.⁽²⁾

- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، ط1، 2001م، صدر عن دار الطليعة بيروت، وهذا الكتاب عبارة عن دراسة ألسنية للقرآن الكريم ولمفهوم الوحي، وفيه يهدف أركون إلى زحزحة مفهوم الوحي التقليدي والسادج الذي قدمته الأنظمة اللاهوتية عنه وتجاوزته إلى تصور أكثر محسوسية وموضوعية وعلمية - حسب أركون - وذلك من خلال تطبيق

(1) - ينظر محمد أركون: العلمنة والدين، الإسلام المسيحية الغرب، ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط3، 1996، ص5.

(2) - ينظر محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، الغلاف الأخير للكتاب.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

المنهجيات الحديثة كعلوم الألسنيات والسيمياثيات والمنهجية النبوية على النص القرآني.⁽¹⁾

وبهذا يعتبر محمد أركون أحد أبرز رموز الحداثة العربية نظيراً وإبداعاً، حتى أننا لا نكاد نجد موسوعة علمية معاصرة تخلو من ذكر اسمه، فهو باحث ومفكر تفكيكي ذائع الصيت، يمتلك ثقافة تراثية واسعة النطاق، بالإضافة إلى تمثله للثقافة الغربية وحدائتها كما يتجلى ذلك في مشروعه لتحديث الفكر الإسلامي، وقد أثار من خلال دراساته التحليلية والنقدية التي امتاز فيها بصرامة الكتابة سجلاً نقدياً تراوحت فيه الآراء بين الرضا والسخط.

والهدف من وراء ذلك كما يقول أركون: «خلق الظروف الملائمة لممارسة فكر إسلامي محرّر من المحرمات (Tabous) العتيقة، والمثولوجيات البالية».⁽²⁾

يقول المفكر والمستشرق الهولندي "رون هالبر" : «يعتبر محمد أركون حالياً – وهو باحث في الإسلاميات ومؤرخ ومدرس في جامعتي باريس وبرينستون وغيرهما – كأشهر ممثل للإسلام الليبرالي في فرنسا».⁽³⁾

مصادر قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون:

ينطلق محمد أركون في قراءته للنصوص الشرعية من نزعة علمية (أكاديمية)، وهذا ما نلمسه للوهلة الأولى من خلال مفردات "قراءة علمية"، نقد"، "اجتهاد"، وغيرها والتي اتسمت بها عناوين كتبه، وهو في ذلك يحاول الابتعاد عن القراءات ذات الدوافع الإيديولوجية، أو التوجهات التقليدية، ولكنه

(1) - ينظر محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ترجمة

هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، ط2، 2005، الغلاف الأخير للكتاب.

(2) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء

القومي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 1996م، ص 58.

(3) - رون هالبر: العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في أوروبا الجهود الفلسفية عند

محمد أركون، ص 07.

مع ذلك لا يخفي انتسابه إلى المشروع الفكري الغربي متحدثاً عن نفسه فيقول: «ولا أستطيع فيما يخصني كمسلم أن أنتسب إلى أي واحدة من هذه الصيغ السائدة، لأنها منقوضة جميعها من قبل الحداثة الفكرية التي أتبتها».⁽¹⁾ وقد كان لنشأته العلمية الأولى أكبر الأثر عليه، فقد تأثر كثيراً بالفلسفة الغربية ومنهجياتها المعاصرة، يقول أركون مبيناً ذلك: «فعندما كنت لا أزال طالباً في جامعة الجزائر استمعت إلى محاضرة لمؤسس مدرسة الحوليات الفرنسية "لوسيان فيفر" عن «دين رابليه» وكانت بمثابة الصاعقة أو الوحي الذي ينزل عليّ. لقد كشفت لي الطريق الذي ينبغي أن أسلكه في ما بعد بعدة سنوات».⁽²⁾

ويذكر أركون بفضل تلك المنهجيات التي يطبقها على التراث العربي الإسلامي، والتي هي المنهجيات نفسها التي يطبقها علماء فرنسا على تراثهم اللاتيني المسيحي أو الأوربي. ويبيدي أسفه لأن الجامعات العربية والإسلامية لا تزال بعيدة عن هذه الطفرة المنهجية التي حصلت في جامعات فرنسا منذ أكثر من ربع قرن، ونحن في هذا المجال متأخرون جداً.⁽³⁾

كما نجد أركون على خطى أستاذه "ريجيس بلاشير" المستشرق الفرنسي ولا يخفي أركون تأثره بهذا المستشرق حيث يقول: «إنه كان متخصصاً محترفاً في فقه اللغة (علم الفلولوجيا). لقد علّمني الدقة والصرامة الفلولوجية».⁽⁴⁾ هذه الدقة والصرامة التي يذكر أركون أنه تعلمها من أستاذه الآنف الذكر قد حاول هو نفسه تطبيقها على سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكما

(1) - محمد أركون: العلمنة والدين، الإسلام، المسيحية، الغرب، ترجمة هاشم صالح، دار

الساقى بيروت، ط 3، 1996م، ص 51.

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر، 1993م، ص 247.

(3) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

صنع أستاذه من قبل في كتابه "مشكلة محمد" حيث قام فيه باستبعاد كل ما هو تقديسي أو تعظيمي ولم يستبق إلا الوقائع التي تخدم المؤرخ.⁽¹⁾ ولئن أرجع محمد أركون توجهات منهجيته المتعددة إلى فضوله الشخصي ومطالعته الشخصية ولطبيعته في حب التردد على أولئك الذين يشتغلون في الحقول المعرفية المختلفة والمتعددة.⁽²⁾ فإنه لا يستطيع أن ينكر -كما يصنع-⁽³⁾ مدى تأثره طيلة مساره العلمي بالمفكرين الغربيين وفي مقدمتهم المدرسة الاستشراقية، وإن كان قد استطاع أركون أن يتوجه بالنقد وبعرض الملاحظات المنهجية لهم، ومن ذلك أن الدرس الاستشراقي «لا يفتح إلا بخجل واستحياء على المكتسبات الغنية لعلم الألسنيات والتاريخ المقارن والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وأركيولوجيا المعرفة».⁽⁴⁾

والمقصود أن المستشرقين مازالوا بعيدين عن توظيف مكتسبات العلوم الإنسانية الحديثة في خدمة التراث الإسلامي. كما تنبه أركون إلى ملاحظة أخرى مهمة متوجها باللوم والعتاب إلى أولئك المفكرين الغربيين من أمثال "ميثال فوكو" ومبدئياً خيبة أمله، وذلك لأن الفلاسفة الأكثر جرأة وتقدماً في تقديمهم للعقلانية المركزية الأوروبية كـ"فوكو ودريدا" وغيرهما يقعون منغلقيين داخل جدران التراث الفكري الأوروبي وأنهم لا يخرجون أبداً إلى سياق هذا التراث.⁽⁵⁾

ومع هذا النقد الذي توجه به أركون للمستشرقين وللمفكرين الغربيين، فإنه رغم ذلك يدعونا للاعتراف بمنجزات كل المستشرقين حيث يقول: «ولكن لنكن متواضعين في ذات الوقت ولنعترف بمكتسبات العلم الاستشراقي

(1) - محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي،

المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 2، 1996م، ص 210.

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 247.

(3) - المصدر نفسه، ص 247، 249.

(4) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 143.

(5) - محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 253-254.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

وانجازاته. فالعدل أو الإنصاف يفرض علينا ذلك. ولذا فإنني أحیی بكل اعتراف بالجميل جهود ومكتسبات رواد الاستشراق من أمثال يوليوس فيلهاوزين، وهووير غريم، وتيودور نولتكه، وفريدريك شوالي، وغون ج. بيرغستراسير، وأو. بریتزل، وإ. غولد زيهر، وتور أندري، وأ. غيوم، وأ. جيفري، وم. برافمان. كما ينبغي أن نحیی جهود تلامذتهم الذين واصلوا على نفس الدرب من أمثال رودي باريث، وريجس بلاشير، وهاريس بيركلاند، ور. بيل، وويليام منغمري واط، وجون بيرتون، وجون وانزبرغ، وأ. ت. ويلش، ويوروبان... الخ نلاحظ من خلال تعداد هذه الأسماء أن عدد الباحثين المهمين على مدار قرن واحد يبدو قليلاً. نقول ذلك وبخاصة أن الأمر يتعلق بمجال معرفي غني جداً وحاسم كمجال الدراسات القرآنية»⁽¹⁾.

وهذا النص وحده يبين مدى احتفاء أركون بمنهج الدراسات الغربية وفي طليعتها الاستشراق كركيزة أساسية في دراسة التراث الإسلامي والنصوص الشرعية على وجه الخصوص. ومن أبرز الأمثلة على متابعته للمستشرقين موقفه من كتابة وجمع القرآن الكريم، فبعد ما ذكر الروايات الإسلامية في تدوين المصحف على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجمعه في عهد عثمان رضي الله عنه، يعود ليشكك في هذه الروايات الصحيحة التي أجمع عليها المسلمون كافة ويرفضها بحجة أن علم التاريخ الحديث لا يسلم برواية التراث الإسلامي التقليدي كما هي، وإنما يتفحص المشكل بإلحاح نقدي كبير، إضافة إلى أن جمع القرآن قد تم في مناخ سياسي شديد الهيجان. ويذكر بعد ذلك بفضل المستشرقين ويشيد بأعمالهم النقدية للروايات الإسلامية لتاريخ النص القرآني، من أمثال المستشرق الألماني "تيوفيل نولدكه" الذي قام بأول دراسة نقدية لكتابة المصحف وجمعه في كتابه "تاريخ القرآن" عام 1860م، ثم بعده المستشرقان "شوالي وبيرغستراسير بریتزل" في كتابيهما "جمع القرآن"،

(1) - محمد أركون: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي،

ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي بيروت، ط1، 1999، ص 32.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

وتاريخ النص القرآني"، وأخيراً المستشرق "ريجيس بلاشير" الذي حاول تكملة بحث من سبقه بوضع نظام ترتيب زمني جديد للسور القرآنية.⁽¹⁾ ولذلك يشكك في صحة القرآن الذي بين أيدينا اليوم ولا يلتفت مع ذلك إلى قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [النحل الآية 9]، ولا إلى إجماع الأمة ويدعي أن القرآن الذي يتلوه ملايين المسلمين اليوم ليس مقطوعاً بصحته، وتراه يفرق بين "الخطاب القرآني" الذي يمثل « العبارات الشفهية التي تلفظ بها النبي ضمن حالات الخطاب وحديثاته التي لم تنقل كلها بحذافيرها وبأمانة»⁽²⁾، وهو النص الصحيح للقرآن بزعمه وبين « المدونة النصية الرسمية المغلقة»⁽³⁾ التي يطلق عليها أركون اسم المصحف الذي تم خلطه بجميع التفاسير والتصورات ، ثم يزعم بعد ذلك أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما أحاط بكتابة المصحف فإننا نجد من الصعب تحديد مضمون القرآن أو محتواه.⁽⁴⁾

هذا إضافة إلى أن أركون يطعن في نظام ترتيب السور والآيات حسب المصحف الشريف ويرى « أن نظام ترتيب السور والآيات في المصحف لا يخضع لأي ترتيب زمني حقيقي، ولا لأي معيار عقلاني منطقي».⁽⁵⁾ كما يرى أن المنهجية الحديثة للعقل المعاصر المعتادة على منهجية معينة في التأليف والإنشاء والقائمة على المحاجة المنطقية ترى أن نص المصحف وطريقة ترتيبه تدهشنا بفوضاها.⁽⁶⁾

وعلى كل حال إذا أردنا أن نصنف مصادر فكر محمد أركون فيمكننا أن نبدأ بالمدونة الاستشراقية، لأن اتصال أركون بالفكر الغربي كان في بدايته

(1) - ينظر محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 81-82.

(2) - المصدر نفسه، ص 85.

(3) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) - المصدر السابق، ص 86.

(5) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(6) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

الأولى عبر الاستشراق عندما كان طالباً جامعياً بالجزائر، وبالرغم من نقد أركون لحدود البحث الاستشراقي لأنه كان تابعاً للإدارة الاستعمارية من جهة، ولأنه لم يستوعب آفاق الرؤية الاستمولوجية الحديثة من جهة أخرى، إلا أن أركون يوظف أعمال ونتائج الكثير من المستشرقين الغربيين ، ويشيد بقيمة أعمالهم.⁽¹⁾

تعدد مناهج البحث عند محمد أركون:

وأما على مستوى المنهج وطرائق البحث والتحليل نجد محمد أركون يستخدم مزيجاً من المنهجيات الغربية في العلوم اللسانية والاجتماعية ومقارنة الأديان والأنثروبولوجيا وغيرها من منجزات الحداثة الغربية، حيث يقول: «أما أنا فقد قمت بدراسة ألسنية وتاريخية وأنثروبولوجية ، وحاولت أن أمزج بين عدة مناهج».⁽²⁾

ولما كان تحديث الفكر الإسلامي وانعتاقه من القراءات التقليدية التراثية هو هاجس أركون الأول، فإنه يدعو إلى تبني منهج جديد في التفسير يعتمد على الناحية السيميائية الدلالية ثم التاريخية ثم الأنثروبولوجية التي من شأنها أن تساعد التولوجي اللاهوتي على تعديل نظراته للأمور بضرورة وجود تفسير جديد للكتابات المقدسة.⁽³⁾

ويريد أركون بذلك أن يقوم بعملية إسقاط تاريخي، أي نقل التجربة الغربية في دراسة الكتاب المقدس على أنه نص تاريخي بإمكان أي شخص تناوله بالفحص الحرّ دون أية واسطة أو ضوابط وقواعد، وهو ما يؤكد عليه بقوله: « ما أريده فعلاً هو أن أثير داخل الفكر الإسلامي تساؤلات مألوفة فيما يخص الفكر المسيحي منذ وقت طويل. بعملنا هذا فإننا نخضع القرآن لمحك

(1) - ينظر كيجل مصطفى: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ص 30.

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ص 246.

(3) - محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 94.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

النقد التاريخي المقارن، وللتحليل الألسني التفكيكي، وللتأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى وتوسعاته وتحولاته وإنهاده»⁽¹⁾.

وهذه عادة معروفة للحدائين فإنهم يفسرون الإسلام وتاريخه وقضاياها إما تحت وطأة الهزيمة الفكرية أو بطريقة الإسقاط التاريخي. وقد علق هاشم صالح معرب أركون وشارحه على أهداف أركون الرامية إلى استخدام المنهجية السيميائية والألسنية وبالخصوص التفكيكية بقوله: «يهدف أركون عن طريق استخدام المنهجية السيميائية والألسنية في الصفحات التالية إلى تحرير القارئ المسلم من هيمنة النصوص المقدسة ولو للحظة من الزمن...»⁽²⁾.

وبما أن الثقافة السائدة اليوم هي الثقافة الغربية الحديثة فإنها تزودنا بعدة منهجية هائلة تمكننا من الحفر في طبقات النص المنزل ومن تفكيك المفاهيم الدينية كالوحي والمقدس والحرام والشرعية والسنة...، وبالفعل فإن أركون يخضع خطاب الوحي، من خلال نقده وتفكيكه للخطابات التي جعلته مداراً للكلام، إلى قراءة حديثة يقوم من خلالها بإعادة النظر في حقيقة الوحي ذاته.⁽³⁾ وهذه المفاهيم الدينية التي يطمح أركون وغيره من أصحاب الخطاب الحدائين إلى تفكيكها وتحليلها، هي في الوعي الإسلامي من قبيل المسلمات واليقينيات الثابتة التي لا تقبل المساءلة، غير أن أركون يعيب على الخطاب الإسلامي اعتبارها مسلمات، وأنها فوق أي مناقشة ولا يمكن للمرء إلا التسليم بها تماماً، بل هي مجرد افتراضات غير مبرهن عليها، أي كل الافتراضات الواقعة بمنأى عن كل تفحص فكري نقدي، والتي يشكل مجموعها «الإيمان» الإسلامي ويؤبده.⁽⁴⁾

(1) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 56.

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية (الهامش)، ص 94.

(3) - علي حرب: نقد النص، ص 106.

(4) - محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط2، 1995م، ص 162.

وكمثال على هذه القراءة التفكيكية التي تأتي من خارج نطاق التداول الإسلامي، يقول محمد أركون: «القرآن نص مفتوح على جميع المعاني ولا يمكن لأي تفسير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكل نهائي وأرثوذكسي»⁽¹⁾ والمقصود أن أركون يستخدم في دراسته للنصوص الشرعية منهجية متعددة هي عبارة عن خليط غير متجانس من مناهج غربية معاصرة في فضاء الحدأة العقلية، وهو في ذلك يلح على ضرورة المكاثرة من هذه المناهج والاستفادة منها ومن منجزاتها كإستراتيجية التفكيك عند "جاك دريدا" وأركيولوجيا المعرفة، أو الحفر الأركيولوجي كمنهج كامل في الفكر وعلى طريقة معينة في النظر إلى التراث عند "ميشال فوكو"، وعلم تاريخ الأديان إلى جانب السيميائية (الدلالية)، وعلم اللسانيات الحديث، ولذلك فإن قاموس مصطلحات أركون يحتوي على العديد من المفردات التي يشوبها الغموض وعدم الوضوح حتى عند من أوجدها في سياقها المعرفي والفكري الأصلي الذي وجدت فيه.

ومن ذلك: مصطلح الفضاء العقلي (L'espace Mental)، ومصطلحات: المفكر فيه، اللامفكر فيه، المستحيل، المستحيل التفكير فيه، الأركيولوجيا، ومصطلح الرأسمال الرمزي (Le capital Symbolique)، عندما يتحدث عن الرأسمال الرمزي للإسلام مثلاً. ومصطلح الأرثوذكسية (Orthodoxie) وهذا على الرغم من احتمالية التورط في الخلط بين معناه ومعنى المذهب الأرثوذكسي في المسيحية. ومصطلحاً قريباً منه هو الدوغمائية (Dogmatisme) أو السياج الدوغمائي (La Clôture Dogmatique)، مصطلح تجربة (تجربة المدينة)، (نموذج المدينة) (L'Expérience de Médine)، ويفضل أركون استخدام هذين المصطلحين على أن يستخدم مصطلح الإسلام كما هو شائع لدى الكتاب في الغرب والشرق، و مصطلح الظاهرة الإسلامية، كما يستخدم مصطلح: التريث وهو مقابل المصطلح الفرنسي (Tradition)، كما يستخدم مصطلحات مثل: الأسطورة

(1) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 145.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

والأدلة . وهناك أيضاً مصطلح المتخيل (L'imaginaire) الذي يحتل أهمية مركزية في فكر أركون وهو مصطلح وافد من علم الأنثروبولوجيا وعلم التاريخ الحديث، وهذا المصطلح هو غير كلمة خيال (Imagination) وإن كانت تنتمي إلى العائلة اللغوية نفسها. هذا إلى جانب المصطلحات الألسنية التي يكثر منها أركون.⁽¹⁾

وهذا ما يفسر كثرة المفكرين الغربيين التي تعج مؤلفاته بقائمة طويلة من أسمائهم ويحتفي أركون بهم كثيراً.

ويقوم أركون بتحليل التراث الإسلامي وتفكيكه بما في ذلك الوحي في خلط واضح بين المطلق الإلهي والزمني البشري رغم تمييزه بينهما، باعتبار أنه لا سبيل إلى قراءة النصوص الشرعية إلا بالانخراط في مشروع الحداثة والأخذ بمنجزاتها ، ولذلك يجب علينا لزاماً كما يدعي أركون: «ينبغي علينا إعادة تشكيل علم الربوبية، وعلم تيولوجيا الوحي ، وعلم تيولوجيا التاريخ وتيولوجيا الأخلاق وفلسفة القانون.. الخ، ولكي ينجز كل هذا العمل بشكل مرض يلزمنا أولاً علم ألسنيات حديثة للغة العربية وتشكيل نظرية متماسكة للتأويل، وتشكيل علم سيميائيات للخطاب الديني وكل هذا لا يزال ينقصنا في الساحة الإسلامية وفي الساحة العربية. وهذا يشكل بحد ذاته برنامجاً ضخماً لمن يريد أن يعيد التفكير في الإسلام بالمعنى الجذري الإستراتيجي للكلمة».⁽²⁾

ولإعادة التفكير في الإسلام بالمعنى الجذري يستخدم أركون:

- المنهج التفكيكي: وقد وصف أركون أنه صاحب القراءات التفكيكية للنصوص الدينية من أجل الكشف عن المسكوت عنه و اللامفكر فيه ، وذلك

⁽¹⁾ - ينظر محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ص6، وما بعدها، وهذه القائمة

الطويلة من المصطلحات قام هاشم صالح تلميذ أركون بترتيبها وشرحها ونقلها إلى العربية فلم يصنع شيئاً بل زادها غموضاً إلى غموضها.

⁽²⁾ - علي حرب: الممنوع والممتنع، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995م، ص126.

لأن «الأزمة تفترض التشريح والتفكيك»⁽¹⁾، أي منهج أركيولوجيا الفكر عن طريق الحفر والتعرية باعتبار التراث عبارة عن «مجموعة متراكمة ومتلاحقة من العصور والحقب الزمنية كطبقات الأرض الجيولوجية أو الأركيولوجية ، ولا يمكن أن نتوصل إلى الطبقات العميقة – أي القرون التأسيسية الأولى – إلا باختراق الطبقات السطحية والرجوع بالزمن إلى الوراء»⁽²⁾.

- منهج القراءة السيميائية أو المقاربة السيميائية (الدلالية) باعتبار أن نصوص الوحي هي المادة الأولية أو الأصلية بصفقتها معطى لغوياً وتاريخياً واجتماعياً – ثقافياً مرتبطاً بزمان مكان خاص وفريد من نوعه أي زمن النبوة.⁽³⁾

ويقصد أركون من ذلك أن التحليل الألسني الحديث (أو السيميائي الدلالي بشكل عام) يحزّر المرء من أسر النصوص الدينية وهيتها الضخمة التي تضغط عليه ما إن يتدبّر بقراءتها ، فلا يستطيع أن يقيم مسافة بينه وبينها لتحليلها موضوعياً. إن التحليل السيميائي يساعد القارئ على إقامة هذه المسافة ويجعله يراها كما هي عليه ، أي في حقيقتها المادية والنصية واللغوية.⁽⁴⁾

وبهذه الطريقة يسجن أركون القارئ في هذا المنهج الألسني عندما يركز أركون على الطريقة التفكيكية مما يؤدي إلى تغييب المعاني الخاصة لمدلولات النصوص الدينية وحجب سياقاتها عن القارئ.⁽⁵⁾

- المنهج التاريخي: يدعو أركون إلى إعادة النظر في كل الإسلام بكسر السين الدوغمائي المغلق ، وذلك بتطبيق منهج النقد التاريخي على نصوص الوحي الإلهي حيث يقول: «ما أريده فعلاً هو أن أثير داخل الفكر الإسلامي تساؤلات مألوفة فيما يخص الفكر المسيحي منذ وقت طويل. بعملنا هذا فإننا نخضع

(1) - علي حرب: نقد النص، ص 74.

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 10.

(3) - المصدر نفسه، ص 33.

(4) - المصدر نفسه (الهامش) ، ص 33-34.

(5) - رون هالبير: العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار جهود محمد أركون الفلسفية،

ص 53.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

القرآن لمحك النقد التاريخي المقارن وللتحليل الألسني التفكيكي ، وللتأمل الفلسفي ...»⁽¹⁾

ويرى أركون أن هذا النقد التاريخي أمر ضروري وملح من وجهة نظر البحث العلمية، وهو لم ينجز بعد للعقبات التي تعترضه ولما يثيره من مشكلات داخل الفكر الإسلامي، ولذلك «فإن النقد التاريخي المطبق على القرآن والحديث والفقه ، والذي طُبّق سابقاً على الشعر الجاهلي والخلافة، كان قد أثار ، ولا يزال يثير حتى الآن ، ردود فعل عنيفة من قبل المجتمع الذي يشعر بأنه مهدّد في حقائقه المطلقة وقيمه المحورية»⁽²⁾.

ومن أجل إثارة هذه الحقائق المطلقة ومساءلتها وتفكيك هذه القيم المحورية التي حواها الإسلام، فإن أركون يعيب على التنويريين العرب أنهم « لم يخاطروا أبداً بالقيام بدراسة نقدية للدين على طريقة ماكس وير مثلاً أو أ.ي.ترولتش (E.Troeltsch). ولم يقوموا بصراع ضد الكهنوت على طريقة فولتير، ولا في تفسير الأفكار الجامدة dogmes والوعي الخاطئ على طريقة مونتيني ، ولم يدخلوا في صراع دائم وذي دلالة أو أهمية تذكر من أجل تعرية الأصول الآنية والمرحلية والدينيوية للشريعة، ولا بإنجاز تيولوجيا إسلامية ملائمة للروح العلمية الجديدة»⁽³⁾.

تأثر محمد أركون بمنهجية نقد الكتاب المقدس:

ويبدو أن محمد أركون في عمله هذا متأثر بمنهج النقد التاريخي للكتاب المقدس ، والذي يريد أن يطبقه على الإسلام باعتبار أن الغرب لم يتقدم علمياً إلا بعد أن قام بتفكيك نصوصه المقدسة من غيباتها وإخضاعها للنقد التاريخي ، وعلى ذلك فهو يدعو إلى أن يطبق المسلمون هذه المنهجية على

(1) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 56.

(2) - محمد أركون : الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 119.

(3) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 237.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن شرط تقدمهم مرهون بتحرّره من قداسة القرآن كما يذهب إليه أركون. ويرز في مدرسة نقد الكاتب المقدس التي تبناها محمد أركون الأسماء الإستشراقية التالية : (ريتشارد سيمون، ويرهان سملر، وجاك اشروك، وكارل دافيد إيلجن، وهيرمان هونفلد، تيودور نولدكه، وفلهاوزن).

ومن سلبيات منهج النقد التاريخي للكتب المقدسة التي يريد أركون تطبيقه على الإسلام أنه يقوم على نظرية المصادر الإنسانية للعهد القديم وهي النظرية التي طورها المستشرق الألماني «يوليوس فلهاوزن» مؤسس علم نقد الكتاب المقدس في العصر الحديث، وهذا المنهج وإن كان يصح تطبيقه على التوراة والإنجيل؛ لتعرضها للتبديل والتحريف الذي أخبر الله تعالى عنه، إلا أنه من الخطأ المنهجي ومن الضلال والانحراف محاولة تطبيقية على كتاب الله تعالى الذي حفظه الله من التدخل البشري، ومن كل تغيير أو تحريف أو تزوير كما أخبر تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]⁽¹⁾

والمقصود بالتاريخية هنا التي يريد أركون تعميمها على النصوص الشرعية هي «تلك الخاصية التي يتميز بها كل ما هو تاريخي، أي ما ليس خيالياً أو وهمياً، والذي هو متحقق منه بمساعدة أدوات النقد التاريخي».⁽²⁾ ولا يخفى ما في منهج النقد التاريخي من محاولات نزع القداسة وصفة التعالي للنصوص الوحي الإلهي، وعدّها نصوص تاريخية لغوية، بمعنى أنها حسب الخطاب الحدائي ظواهر لغوية ووقائع تاريخية، كما أن هذه التاريخية فيها اهدار للنصوص الشرعية، والخلط المتعمد للمطلق الإلهي الخارج عن طوق البشر ولما هو بشري إنساني ويجعل منها كذلك نصوص بشرية لا تحمل أية مدلولات شرعية، ويغيب فيها مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، بل تصبح

(1) - محمد سعيد السرحاني: الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن الكريم،

بتاريخ 2014/12/02 <http://IslamHouse.com/450185>

(2) - محمد أركون: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 116.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

فضاءات مفتوحة على جميع القراءات دون ضوابط أو قواعد شرعية خصوصاً و« أن التاريخية تستبعد أي جانب غيبي وعقدي للقرآن الكريم والحديث النبوي وترى أن صفة التعالي هي آلية من آليات حجب حقائق التاريخ، وبالتالي فهي تشكل عائقاً أمام تفكيك هذه النصوص وفهمها فهماً يتلاءم والواقع الحدائي المعاصر»⁽¹⁾.

وكل هذه المقالات والمنهجيات التي يعتمدها أركون في تناوله للنصوص التأسيسية – القرآن والحديث – تجد صداها و أساسها المعرفي (الابستمولوجي) في الفكر الغربي والذي يسعى إلى تحويل كل ما هو إلهي إلى إنساني، والذي يعبر عن نزعة لا دينية منذ أن قرر مفكرو عصر الأنوار في القرن الثامن عشر الثورة والتمرد على مختلف الأوضاع السائدة التي فرضتها سلطة الاكلروس، وطي صفحة الماضي، الذي نتج عنه أفول سلطة رجال الدين الكنسي وانتصار الحداثة.

هدف محمد أركون من توظيف مناهج علوم اللسانيات:

إن الهدف الذي يرمي إليه محمد أركون وغيره من اللجوء إلى منهجيات العلوم الإنسانية والاجتماعية والألسنة الغربية وتطبيقها على النصوص الشرعية هو التحرر من سلطة النصوص وجعلها عبارة عن صيرورة لا نهائية من المعاني الأمر الذي يتيح زحزحة القناعات بمرجعيتها الشرعية ومحاولة توظيفها لخدمة الفكرة التي يتبنونها من خلال هذه القراءات والمنهجيات، ومحاولة تطويع هذه النصوص المقدسة يخرج بها عن منطق المعقول، ليسقط عنها دلالاتها الأصلية ويحملها حمولات تناسب إيديولوجيات أصحاب هذه القراءات.

ويبين محمد أركون الغرض من اللجوء إلى هذه المنهجيات اللغوية الجديدة بقوله: «فإذا لجأنا اليوم إلى المكتسبات الجديدة في اللغويات لتحديد مفهوم كلام الله فنحن إنما نطبق موقفاً ثابتاً في الفكر العربي – الإسلامي، بالرغم

(1) - كيجل مصطفى: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ص 273.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

من ذلك فإن للطرائقية اللغوية الحالية قيمة تطلع: إنها تنفي تدخل أية مصادرة مسبقة كلامية أو فلسفية»⁽¹⁾

إن هذا الموقف من أركون يبين بجلاء ما يريده من توظيف للمناهج اللغوية اللسانية الحديثة وهو قطع الصلة بين النص ومصدره بحيث يصير النص الشرعي معزولاً، أي باعتباره نسق مغلق ونهائي وهو ما يفسر استبعاد أركون جميع التفاسير الإسلامية، وبكل أنواعها ومذاهبها واتجاهاتها، لأنها تفاسير أنتجت البيئة الاجتماعية التي تنتمي إليها.

يقول هشام شرابي: «فالحافز الأكبر عند أركون هو كسر طوق الفكر التقليدي الأبوي الذي احتكر التفسير القرآني، وبالتالي تفسير التاريخ الإسلامي والعربي، والقيام بقراءة النصوص التاريخية والدينية قراءة جديدة ترفض الأساليب التقليدية (اللغوية والمستشرقة) وتعتمد أساليب علوم اللسانيات والسيميولوجيا الجديدة ومنهجية العلوم الاجتماعية.

ويستعمل أركون في قراءته مضموناً جديداً للتفكير أو للفكر (وهو المفهوم الذي قدمه هيدغر) أي بالتفكير حول الإسلام والتاريخ الإسلامي مباشرة دون اعتماد الوسائل والمناهج المتبعة في دراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي حتى الوقت الحاضر، ويهدف إلى تجاوز المنطلقين الدوغمائيين ومنطلق الإيديولوجية العينية»⁽²⁾

وهذا هو معنى الحرية على هذا الصعيد، فهي تتيح إمكانية الدخول على الإسلام وتراثه من الفضاء الغربي الحديث على اختلاف عقلانياته وأدواته المنهجية وأنظمته المعرفية.

(1) - محمد أركون: الفكر العربي، ترجمة عادل العوّاء، منشورات عويدات، بيروت، باريس،

ط3، 1985، ص 33.

(2) - هشام شرابي: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، (دط)، (دت)، ص 54-55.

وهي تعني كذلك إمكانية التعامل النقدي مع الإسلام لا بوصفه مرجعية مقدسة أو سلطة معرفية لا تجادل أو هوية ثابتة أو نهائية، بل بوصفه أحداثاً تاريخية أو مخزوناً ثقافياً أو رأسمال رمزي.⁽¹⁾

ولكن الواقع العربي الثقافي، يرفض هذا الترف الفكري، يرفض أن تنسحب مضلة الحداثة، بمفاهيمها الغربية والمدارس أو المشاريع النقدية التي أفرزتها، على النصوص الدينية بصفة محددة في محاولات لأنسنة الدين. إذ إن تطبيق مقولات البنيوية والتفكيك على نص ديني بما يعنيه ذلك من القول باللائق، واللعب الحر للغة. بمفهوم دريدا، و بانتفاء التفسير المفضل والموثوق، أو التفسير النهائي و بتعدد التفسيرات بصورة لا نهائية، يوقعنا في محاذير ربما لا نقصدها ربما يحدث ذلك - وقد حدث مؤخراً - عن خطأ في تطبيق المنهج النقدي، وليس عن إلحاد أو تجديف، لكنه يمثل خطأ منهجياً في استخدام أدوات نقدية مثيرة للجدل في تحليل نصوص غير أدبية.⁽²⁾

وهذا هو الهدف النهائي لمشروع أركون الفكري "الإسلاميات التطبيقية"، وهو خلق الظروف الملائمة لممارسة فكر إسلامي محرر من المحرمات (Tabous) العتيقة، والميثولوجيات البالية ومحرراً من الإيديولوجيات الناشئة حديثاً.⁽³⁾

محمد أركون والحداثة:

تشكل الحداثة في مشروع أركون الفكري "نقد العقل الإسلامي" إشكالية أساسية، لأن العرب والمسلمين قد انخرطوا في مشروع الحداثة التقنية ولم يتعرفوا بعد على روح الحداثة الفكرية، وذلك للفهم السلبي، أو

(1) - علي حرب: الاستلاب والارتداد الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص108-109.

(2) - عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، أبريل 1998، ص31.

(3) - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص58.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

الاستخدام السلبي للحدثاء وهو: العلمانية الإيديولوجية، التي شكلت في القرن التاسع عشر، أي أثناء ازدهار الفلسفة الوضعية، رد فعل عنيفاً ضد سلطة الكهنوت المسيحي، ويتحدث أركون عن العلمانية بالمعنى الإيجابي والمنفتح للكلمة هي إحدى منجزات الحدثاء الكبرى، ومكتسباتها الأكثر عطاء، وما كان للحضارة الحديثة أن تنهض بدونها.⁽¹⁾

ويفرق محمد أركون بين الحدثاء الفكرية والتحديث، إذ الحدثاء هي: «موقف للروح أمام مشكلة المعرفة إنها موقف للروح أمام كل المناهج التي يستخدمها العقل للتوصل إلى معرفة ملموسة للواقع»⁽²⁾، وأما التحديث فهو «مجرد إدخال التقنية والمخترعات الحديثة. إلى الساحة العربية أو الإسلامية، أي إدخال آخر المخترعات الأوروبية الاستهلاكية وإجراء تحديث شكلي أو خارجي لا يرافقه أي تغيير جذري في موقف المسلم من الكون والعالم»⁽³⁾، وبناء على ذلك يدعو أركون إلى تحديث الفكر الإسلامي، وقراءة التراث من خلال تفكيك داخلي لكل الأنظمة، ولا يتم ذلك إلا بهضم الحدثاء العقلية وتمثلها لكي نستطيع أن نقرأ النصوص التأسيسية الأولى للإسلام، يقول أركون هذا ما تعلمني إياه الحدثاء، ومعقولة الحدثاء.⁽⁴⁾

ورغم أن أركون يؤكد أن الحدثاء استطاعت أن تدخل تصوراً جديداً كلياً بالقياس إلى التصور اللاهوتي القديم للعالم، كما استطاعت أن تحرر الإنسان من القوى المتعالية، وهذا في حد ذاته تغيير عميق جداً فإن المسلمين – على حد قوله – لم يتجاوزوا بعد المرحلة الأولى من مراحل الحدثاء.

(1) - محمد أركون: ندوة مواقف الإسلام والحدثاء، ص 327.

(2) - المصدر السابق، ص 354.

(3) - المصدر نفسه، ص 355.

(4) - المصدر نفسه، ص 363.

فالمسلمون اليوم مدعوون إلى أن يخوضوا نفس المعارك التنويرية الحاسمة التي خاضها الأوربيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أجل تحقيق الاستقلالية الكاملة للعقل بالقياس إلى اللاهوت القروسطي القديم.⁽¹⁾ والمقصود أن أركون لا يريد أن يظهر بمسلك الذين يرفضون الوحي الإلهي، ولكنه يتمثل الحداثة كمنهج للتحرر من الشعور التقديسي للنصوص الشرعية، ومن التراث الإسلامي الذي خلفه العلماء المسلمين كشرط ضروري لتحقيق الحداثة الفكرية، ولهذا السبب يولي أركون أهمية كبيرة لمفهومي خلع القداسة والتعالي على قانون ما، وهي وظيفة أساسية وحاسمة لتحديث الإسلام. وفي السياق نفسه يقسم أركون العقل إلى ثلاثة أقسام: العقل بشكل عام، وهو العقل المستقل: العقل الذي يخلق سيادة وهوية أعمال المعرفة. والعقل الديني والعقل الفلسفي، وينتقد العقل الديني على العكس من السابق، لأنه يشتغل داخل إطار المعرفة الجاهزة ويستخرج كل المعرفة الصحيحة استنادا إلى العبارات النصية للكتابات المقدسة (من قرآن وأناجيل وتوراة)، وإذن فالعقل الديني عقل تابع لا مستقل، وهذا كما يصفه أركون لا يطرح مشكلة الوحي المعطى كظاهرة موضوعية كوجود الظواهر الفيزيائية أو البيولوجية، يضاف إلى ذلك أنه لا يطرح إطلاقاً مشكلة مشروعية المرور أو الانتقال من مرحلة الوحي إلى مرحلة المعارف المنجزة، أي الانتقال من كلام الوحي المقدس إلى أحكام البشر.⁽²⁾

ويدعو أركون إلى تبني "العقل الحديث" أو "العقل الحداثي" الذي يطبق أدوات الحداثة في التحليل والنقد، وينبغي أن يطبق على المقولات الدينية، التي بلورها القرآن ورسخها في الساحة العربية، وكل الساحات

(1) - محمد أركون: جريدة الشرق الأوسط، العدد 1998/2/6، نقلا عن محمد سبيلا وعبد

السلام بنعبد العالي: دفا تر فلسفية، ما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1،

2007، ص 48.

(2) - محمد أركون: ندوة مواقف الإسلام والحداثة، ص338.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

الإسلامية غير العربية، ينبغي أن يكون ذلك واضحاً، وإلا فلا معنى لنقد العقل العربي، ولا لنقد العقل الإسلامي.⁽¹⁾

ومن وجهة نظر أركون هذه، فإن تحديث العقل الإسلامي لا يتم إلا بإعادة تقييم شاملة للإسلام، ولا بد أن يعتمد التحديث وبشكل صحيح ومطابق للعلمنة و«يعتمد مستقبل العلمنة في الإسلام أساساً على الانتشار الواسع للحدائث العقلية أو الفكرية»⁽²⁾، وإذا كان أركون لا يقلل من أهمية التغيير السياسي والاقتصادي لإحداث التغيير الشامل، ونشر ثقافة العلمنة، فإنه رغم ذلك يقول: «ولكنني أصر على القول بأن الحدائث العقلية والفكرية هي الوسيلة الأكثر إلحاحاً وفعالية للشروع بإعادة تقييم شاملة للإسلام».⁽³⁾

خاتمة:

إن ما يصبو إليه محمد أركون من خلال هذا التجديد للفكر الإسلامي ومصادره هو نقد جذري يطال الإسلام كافة بما فيه النصوص التأسيسية الأولى للوحي الإلهي، وتكمن خطورة هذا الطرح الأركوني في خطورة هذه الأفكار نفسها التي يحملها مشروعه الفكري من سعي إلى زحزحة المسلمات والاعتقادات التي رسخها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في العقل الإسلامي، وإذا ما تحقق لأركون أو لغيره ممن يعتمد قراءة أركون، ما الذي سيتحول إليه الإسلام؟ لا شك أن في انتهاج مثل هذه القراءات سيؤدي إلى ظهور تفسيرات عصرية لأحكام الإسلام، وتفرض فهوماً مختلفة لمضمون القرآن لا يراعى فيها عمومات النصوص الشرعية ولا إجماعات علماء المسلمين ولا دلالات اللغة.

يلاحظ أن أركون يتعامل مع الإسلام ونصوصه المقدسة على طريقة الفلاسفة، وكأن الإسلام مجرد قضايا فلسفية نظرية فكرية تحكم المخيال

(1) - محمد أركون: ندوة مواقف الإسلام والحدائث، المصدر السابق، ص 341.

(2) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مرجعية قراءة النصوص الشرعية عند محمد أركون.....أ.نصري سليم

الجماعي الإسلامي، ويغيب مصدره وأصله الإلهي والتشريعي، فهو يتعامل مع الإسلام على هذا النحو، على وجه العموم والاطراد، والمطالبة بإعادة قراءة النصوص الدينية، وذلك من خلال الأخذ بمبدأ الصيرورة والتغيير الحاصل في مجال المعرفة البشرية وتاريخها، وبالتالي لا يجب النظر إلى النصوص الشرعية والاكتفاء بقيمتها السامية المتعالية، وإنما وجب النظر كذلك إلى تاريخيتها وواقعيتها بالكشف عن اللامفكر فيه ، وكيف تم تطبيق الإسلام وممارسته على النحو المعروف اليوم. وما هذا إلا وجه آخر من أوجه الترف الفكري الذي وصل إليه العقل الغربي حين تحرّر من كل الضوابط والقيود وانتحل الحداثة، والذي يريد محمد أركون شرعته وإحلاله محل الإسلام بحجة الانتفاع بتعاليم الحداثة العلمية والعقلية.